مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 02 السنة 2021 ص 231 - 241

تاريخ الإرسال: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2020/11/24
تاريخ: 2021/04/30

النقد الثقافي في نسخته العربية الغذامي والتشويه النسقي للثقافة العربية

Cultural criticism in its Arabic version Al-Ghadhami and the Systematic Distortion of Arab Culture

الدكتور بوشيبة بوبكر
جامعة زيان عاشور الجلفة (الجزائر)، bouchibab33@gmail.com

الملخص:

ينطلق الغذامي في محاولته قراءة الشعر العربي قراءة ثقافية، للكشف عن الأنساق التي كرسها الشعر في الثقافة العربية، من الشعر الجاهلي بوصفه " ديوان العرب " والذي يمثل مصدر الثقافة العربية، والمرجعية التي يصدر عنها سلوك الأفراد في المجتمع والتصور الذي ينطلقون منه في معرفة الذات والآخر في اعتقاد الغذامي، الأمر الذي جعل من الشعر الموضوع المركزي في كتابه.

إنه النقد الثقافي في نسخته العربية، إنه إدانة للقيم العربية، وإدانة للشعر العربي، بوصفه حاملا لهذه الأنساق ومكرسا لها داخل المجموعة الثقافية، انه اختزال إجرائي جريء لقيم أمة بكاملها في مجموعة من الأنساق المفتعلة المبثوثة في الشعر.

الكلمات المفتاح : النقد الثقافي، الأنساق، الغذامي، الثقافة العربية، الشعر، القيم.

Abstract:

Al-ghozami, in his attempt to read Arabic poetry,To reveal the patterns that poetry has devoted in the Arab culture, from Jahili poetry As « Diwan Al Arab »Which represents the source of Arab culture, And the reference given to the behavior of individuals in society and perception They proceed from it in the knowledge of the self and the other in the belief of Al-ghozami which made Poetry the Central Theme in his book.

It is cultural criticism in its Arabic version, it is a condemnation of Arab values, and condemnationFor Arabic poetry, as the holder of these patterns and as an anchor within the

Cultural group,it is a bold procedural reducer of the values of an entire nation in a group of Transmitting fabricated patterns of poetry.

Keywords: Cultural criticism, patterns, guthami, Arab culture, poetry, values.

المؤلف المرسل: بوشيبة بوبكر، الإيميل: BOUCHIBAB33@GMAIL.COM

1.مقدمة:

يعد عبد الله الغذامي أول من أفرد دراسة ثقافية نقدية للشعر العربي، حاول من خلالها أن يجعل من الشعر مركزيا في الثقافة العربية، وبذلك يكون مسؤولا عن كل الخلل الذي أصاب الثقافة العربية، فهل يصلح أن نمارس نقدا ثقافيا –بمرجعياته، وآليات اشتغاله– على الثقافة العربية؟، وهل يمكن أن نختزل الثقافة العربية في الشعر، وان كان ذلك على المستوى الإجرائي؟.

ستحاول هذه الدراسة – باعتماد الوصف والتحليل– الوقوف على النقد الثقافي في نسخته العربية من خلال منجز عبد الله الغذامي، وكيف استطاع أن يشوه

الأنساق الثقافية العربية، في محاولته للوقوف عندها ومحاولة مقاربتها للسلوك الشاذ الذي يختزل فيه كل العيوب البشرية ليجعل منها علامة مميزة للذات الثقافية العربية.

2. الثقافة والنقد الثقافي:

قد يفيد أن نحاول وضع يدنا على المراد من النقد الثقافي في هذه المقالة قبل أن نبحث في اشتغاله على الشعر الجاهلي عند عبد الله الغذامي. وأول ما يتبادر للذهن أنه من الوجاهة المعرفية تقديم تعريف مختصر وموجز للثقافة بوصفها موضوعه أو تكاد تكون كذلك.

1.2 الثقافة:

إن مصطلح " الثقافة " الذي شاع في الأدبيات العربية هو ترجمة للفظة أوروبية هي " culture "، وهذه تعود إلى الأصل اللاتيني " cultura " وتعني الزراعة كما تعني تهذيب الروح ومعاني أخرى قريبة من هذه المعاني[1]؛ وأجمع المفكرون الغربيون على التعريف الذي قدمه تايلر للثقافة بوصفها كلا مركبا معقدا يشمل عدة مكونات مترابطة ومتداخلة هي المعتقدات، الفنون، المعنويات، القوانين، العادات التي يتبناها الفرد داخل المجتمع[2].

وركز البعض على العادات الاجتماعية والسلوكيات، وآخرون على الأبعاد التاريخية للمفهوم أو المعنوية أو النفسية، وغالبا ما ركز كل تعريف على جانب ما من الجوانب. فمثلا (بارسون) و (كروبر) استخدما مفهوم الثقافة بمعنى القيم والأفكار والرموز أكثر من كونها أشكال السلوك البشري. في حين درس (لاسويل) العلاقة بين الثقافة والشخصية، وتبنى الربط بين الشخصية القومية والثقافة[3] .

وتعرض مفهوم الثقافة لكثير من التطورات والتغيرات إلا أنها جميعها تطورات وتغيرات في اتجاه توسيع المفهوم وتنويع ما يشمله من عناصر، بحيث أضحت الثقافة تعبر عن شكل وأسلوب الحياة بأكملها التي يحياها الإنسان. وتزيد

علاقة الإنسان المزدوجة بالثقافة كموضوع وهدف، من تعقد وشمولية المفهوم ليغطي ما هو مادي وروحي، ويشمل كل من الإبداع والفعل.

2.2النقد الثقافي:

لقد ورد في " دليل الناقد الأدبي " مفهوم النقد الثقافي انطلاقا مما يوحي به اسمه، بأنه نشاط فكري يتخذ من الثقافة على اختلاف أبعادها موضوعاً لبحثه [4]. و النقد الثقافي فعالية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية التي تطرح النظريات الثقافية ومن ذلك يتضح حجم المساحة التي يشغل فيها هذا النقد[5].

وقد ظهرت ملامح النقد الثقافي في أوروبا في القرن الثامن عشر. غير أن كل تلك المحاولات التي تتقاسم نفس المرامي والأبعاد مع النقد الثقافي كانت تفتقر إلى مرجعية واضحة، ولم تكتسب أدوات إجرائية وإطار اصطلاحي محدد إلا مع الباحث الأمريكي (فنسنت ليتش) في تسعينيات القرن العشرين .

إن النقد الثقافي الذي دعى له (فنسنت ليتش) هو "نقد ثقافي ما بعد بنيوي" يهدف إلى تجاوز النقد الأدبي الشكلاني الذي يحصر النقد داخل إطار الأدب كما تفهمه المؤسسات الأكاديمية "الرسمية"، وبالتالي تمكين النقاد من تناول مختلف أوجه الثقافة ولاسيما تلك التي يهملها عادة النقد الأدبي[6].

ويمكن اعتبار عبد الله الغذّامي أول من حاول تبنّي مفهوم النقد الثقافي في معناه الحديث الذي حدده فنسنت ليتش واستخدم أدواته لاستكشاف عدد من الظواهر الثقافية العربية التي لم تستطع مختلف مدارس النقد الأدبي السابقة التصدي لها[7].

ويحاول الغذّامي أن يقدم مفهوما للنقد الثقافي انطلاقا من الوظائف التي يضطلع بها، وعليه فالنقد الثقافي عند الغذامي هو: " فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي

وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. ومن حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي، فكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات لا بمعنى عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي"[8].

3. البعد الثقافي للشعر العربي:

لقد كانت وظيفة الشعر ثمرة جدلية قائمة على التفاعل بين الشعر والثقافة، وثمرة جدلية اجتماعية كانت تختمر داخل المجموعة الثقافية العربية[9]. فوظيفية الشعر الجاهلي ليست منفصلة عن الخطاب الثقافي في المجموعة الثقافية العربية، ذلك أن الثقافة ذات بعد خطابي، وهي تعبير عن المجموعة الثقافية، كما أنها أداة للهيمنة عليها، لذلك كان الشعر الجاهلي محملا بالأنساق الثقافية.

1.3 الوظيفة الاجتماعية للشعر العربي:

إن ارتباط الشعر الجاهلي في أصل وجوده بالوظيفة الاجتماعية، هو الذي وهبه بعدا ثقافيا، ذلك أن الشعر نشأ مرتبطا بحاجة وظيفية، قبل ارتباطه بالقصد الفني. فالشعر عند العرب لم ينشأ إلا لدفع شر، أو تخليد أثر، أو الفخر بنسب، أو ... ولذلك " لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات، يقولها الرجل في حاجته"[10].

وينطلق الغذامي من اعتبار الشعر هو (ديوان العرب)، و(علم لم يكن لهم علم سواه)، بل هو (كل شيء بالنسبة لهم)، وهو بهذا يوهم المتلقي بنصوص تراثية أشادت بمعرفة العرب بالشعر، وتفردها فيه، وقدرتها على تضمينه كل مناحي

حياتها، فأوردت فيه أخبارها، وأشادت فيه بأيامها، وفخرت من خلاله بأنسابها ، فالنقاد العرب القدامى أرادوا بذلك أنه (يعني الشعر) كان الحامل المادي لتراث العرب، ولم يشيروا أبدا إلى أن الشعر كان مصدرا للقيم، ومرجعا للسلوك، أو منطلقا للتفكير، كما يدعي الغذامي.

والمتمعن في نصوص العرب القدامى يعرف أن الاحتفاء بالشعر إنما يرجع إلى أهمية الوظيفة التي ينهض بها في المجتمع من خلال المضامين التي يحملها، فهو " علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه "[11] بهذا يطالعنا ابن سلام. والرأي نفسه نجده عند ابن رشيق حيث يعلن في خطة كتاب العمدة " فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته، وتمتثل إرادته (...) والشعر أعلى مراتب الأدب "[12]، وهو ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم كما يقول ابن خلدون[13]، إن ما يهب الشعر هذه المكانة عند العرب ليس الشعر في ذاته، كما يعتقد الغذامي، وإنما المضامين التي يحملها.

2.3 الوظيفة الثقافية للشعر العربي:

قد اكتسب الشعر الجاهلي – في اعتقادنا – بعده الثقافي عند اشتغاله داخل الخطاب الثقافي لهذه الأمة من جهة، وعن منزلته في هذا الخطاب الثقافي من جهة ثانية. كما "ويحق لنا أن نتساءل عن منزلة الشعر الجاهلي في الرؤية الجمالية عند العرب"[14]، وعليه لا يمكن الوقوف على كيفية تشكل الوظيفة الثقافية للشعر الجاهلي، إلا من خلال ما يحمله من أنساق ثقافية، تتخفي وراء انساق هذا الشعر الجمالية والفنية.

ولا يكون إقرارنا بالوظيفة الثقافية للشعر الجاهلي إلا من خلال وظيفته الاجتماعية بوصفها سببا لهذا التشكل. ذلك أنه لا يمكن استبعاد العلاقة المباشرة التي يمكن افتراض نشوئها بين الشعر والمجال الواقعي إذ ما يميز الخطاب الثقافي

بوجه خاص هو كونه بناءً يصاغ في الغالب من بعض الخواص المنتقاة من الواقع[15].

إن ما يمكن ملاحظته في وظيفية الشعر الجاهلي بوصه خطابا ثقافيا هو تشكلها في مستويين، أولهما مستوى واع تم وفق ما اقتضته قيم المجموعة، وثانيهما مستوى غير واع اقتضاه ما ترسب في الذاكرة الجماعية للمجموعة الثقافية العربية. فتشكل في هذا الإطار النص المضمر المحمل بالأنساق الثقافية، حيث مسكن الرؤية الجمالية للمجموعة الثقافية المعنية[16] .

4. من قراءة أنساق الثقافة العربية إلى تشويهها:

ينطلق الغذامي في محاولته قراءة الشعر الجاهلي قراءة ثقافية، للكشف عن الأنساق الثقافية التي كرسها الشعر في الثقافة العربية، بوصفه " ديوان العرب " والذي يمثل مصدر الثقافة العربية، والمرجعية التي يصدر عنها سلوك الأفراد في المجتمع والتصور الذي ينطلقون منه في معرفة الذات والآخر في اعتقاد الغذامي، الأمر الذي جعل من الشعر الموضوع المركزي في كتابه.

ويكشف الغذّامي ذلك مبكرا من خلال التساؤلات التي يضمنها لمقدمة كتابه، تساؤلات تبيّن للقارئ أن الغذامي ينطلق من النتائج التي أعدها سلفا والتي تتميز بكثير من التعميم، والشمولية: " هل جنى الشعر العربي على الشخصية العربية ؟ هل هناك أنساق ثقافية تسربت من الشعر وبالشعر لتؤسس لسلوك غير إنساني وغير ديموقراطي، وكانت فكرة "الفحل" وفكرة "النسق الشعري" وراء ترسيخها؟ ومن ثم كانت الثقافة، بما أن أهم ما فيها هو الشعر، وراء شعرنة الذات وشعرنة القيم؟ لقد آن الأوان لنبحث في العيوب النسقية للشخصية العربية المتشعرنة، والتي يحملها ديوان العرب، وتتجلى في سلوكنا الاجتماعي والثقافي بعامة "[17].

ويكمن التعميم في هذه التساؤلات التي تمثل في الآن ذاته أحكاما مسبقة

غير معللة، وغير مبررة، في أنها تجعل من السلوك نسقا ثقافيا، وجعلت الشعر مصدرا وحيدا للقيم والأنساق التي تقف خلفه، بل ويحصر النسق الشعري في مجموع الأنساق التي تكرس السلوك غير الإنساني، والقيم القبيحة، و...، إننا هنا أمام محاولة لإيهام القارئ أن الذات العربية مصوغة من الشعر، وسلوكها اختزال لمجموعة العيوب النسقية، التي اكتسبت من خلال الشعر، وتجذرت عميقا في الذات.

ومن هذا المنطلق الذي يجعل الشعر مركزيا في الثقافة العربية بل مصدرا لكل القيم والأنماط والسلوك، يبالغ الغذامي في نسبة الشعر لكل شيء، فالأمة العربية أمة شاعرة، واللغة العربية لغة شاعرة، والذات العربية ذات متشعرنة. "... فرَحُنا بأنّا الأمة الشاعرة واللغة الشاعرة: خدعة نسقية لم نع ضررها! "[18].

إن إطلاق الحكم على سلوكنا، والأنساق الثقافية التي يصدر عنها، وتعميمه، بل واختزال السلوك– والأنساق المسؤولة عن تكريسه– في القبح، هو حكم جريء وجائر في الوقت نفسه، إذ أن الشعر القديم يحمل أنساقا مضمرة كرست في الشخصية العربية قيما ايجابية، وإنسانية، وحضارية أيضا، على نحو الكرم والشجاعة والمروءة وحسن الجوار وغيرها...

كما أن الأنساق الشعرية التي يرى الغذامي أنها تكرس قيما لا إنسانية، وكانت مصدرا لعيوب الشخصية الثقافية التي أصبحت نمطية من خلال شخصية الشحاذ البليغ (الشاعر المداح)، وشخصية المنافق المثقف (الشاعر المداح أيضا)، وشخصية الطاغية (الأنا الفحولية)، وشخصية الشرير المرعب (الشاعر الهجاء)، يقول الغذّامي: " فشخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع، من جهة، وشخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر، من جهة ثانية، هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري، ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى،

ومن ثم صارت نموذجاً سلوكياً ثقافياً يعاد إنتاجه، بما أنه نسق منغرس في الوجدان الثقافي... "[19]. هذه الأنساق الشعرية التي انتقاها الغذامي تمثل لا يمكن فصلها عن شرطها التاريخي، بل لا يمكنها أن تشكل غلا جزءا يسيرا من تراثنا الذي يعج بأنساق تكرس سلوكا أكثر إيجابية.

إن الانطباع العام الذي يخرج به المرء نتيجة العرض السابق أن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة الفرد المتسلط الذي يهمش المجموع ويذيبهم في بوتقته، ويسحقهم في رحى أناه وغطرسته، والمنافق المتملق الذي يتجاوز مبادئه وقيمه من أجل نيل العطاء.

فالنسق الثقافي في نظر الغذامي كرس الولاء لقيم القبيلة التي اضطلع الشعر ببثها في المجموعة الثقافية، وحاول تأييدها من خلال تنميطها في سلوكات فردية، تزكيها المجموعة التي رسبت هذه القيم في ذاكرتها الجماعية التي تشكلت في كنف الشعر، بل صارت مدار الفخر والتباهي.

إنها أنساق مفتعلة من طرف الناقد الذي يتكئ على التأويل كأداة إجرائية، بعيدا عن ما يتيحه النقد الثقافي، والذي يبحث عن الأنساق الثقافية المتسربة في الشعر والأدب عامة، وليس العكس، حيث انطلق الغذامي من السلوك الشاذ في الثقافة العربية بوصفه نسقا ثقافيا وحاول تحويله إلى نسق شعري، ليدين الشعر العربي القديم والثقافة العربية على حد السواء.

إن هذا التنميط للأنساق التي تستبطنها أغراض الشعر القديم، ليس إلا ضرباً من التأويل الذي جعل منه الغذامي حقيقة ينطلق منها في إثبات أن الشعر هو مصدر الخلل النسقي الذي شوّه القيم في الذات الثقافية العربية، وهذا تجاوز خطير، ذلك أن قارئاً آخر يمكن أن يرى في هذه الأنماط الشعرية أنساقا مضمرة مرتبطة بالصدق، والعفة، والتواضع،... ما يغني الشخصية الثقافية العربية بقيم وسلوكات

إنسانية، محفزة على الانفتاح وتقبل الآخر.

5. خاتمة:

إنه النقد الثقافي في نسخته العربية، إنه كشف للعيوب النسقية في ثقافتنا التي لم يكن لها من مصدر غير هذا الشعر حسب الغذامي !!!!.. إنه إدانة للقيم العربية، وإدانة للشعر العربي، بوصفه حاملا لهذه الأنساق ومكرسا لها داخل المجموعة الثقافية، انه اختزال إجرائي جريء لقيم أمة بكاملها في مجموعة من الأنساق المفتعلة المبثوثة في الشعر.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نسوق هذه النتائج والتوصيات للمشتغلين بالنقد الثقافي عربيا:

*-إن النقد الثقافي في طبيعته الأصلية قد مورس على نتاج معرفي غربي، له مكوناته وخصائصه، ومن ثم فهو مسؤول عن نتاج قراءاته لهذه المكونات.

*-إن هذا النقد الثقافي نشأ غربيا ويخضع للشروط التي أنتجته، والثقافة التي احتضنته، وقد جلب إلى حقل الثقافة العربية على صعيد أداتي، ونظر إلى الثقافة العربية كأنها منجز واحد يمكن اختزاله في الشعر.

*-إن هذا النقد الثقافي في نسخته العربية قد أخذ على عاتقه أن يقرأ في الشعر العربي وجهه القبيح، داعيا إلى ما أسماه بالقبحيات، بصفتها الوجه الجديرة بالقراءة.

6.المراجع

[1]- حسين مؤنس، الحضارة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ط2، الكويت، 1419، ص 377.

[2] - paul valadier, la mondialisation et les cultures, , études, novembre, 2001, p509.

[3]- ينظر: باكينام الشرقاوي، إشكالية الثقافة والتنمية في الاتجاهات الفكرية الغربية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2008، ص 107.

[4]– ينظر: ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من سبعين تياراً واتجاهاً نقدياً –المركز الثقافي العربي، المغرب، ط5، 2007، ص 305.

5– جاسم حميد جودة الطائي وهبه محمد صكبان، الأنساق الثقافية في أدب وادي الرافدين، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 24، العدد4، 2015، ص1759.

[6]– ينظر: إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني، أمانة عمان الكبرى، د.ط، 2002، ص 126.

[7]ينظر: مسعود عمشوش، النقد الثقافي والنقد الأدبي، http://www.geocities.com/yemenitta/maqal24.htm

[8]– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001، ص 83–84.

[9] – أسماء جموسي، التفاعل السياقي بين الشعر الأول والتراث النقدي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، 2011، ص 102–103.

[10] – ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974، ص26.

[11] – المصدر السابق: ص 22.

[12] – ابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، بيروت، 1981.ج1، ص: 29.

[13] – ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984: ص 580.

[14]– أسماء جموسي، التفاعل السياقي بين الشعر الأول والتراث النقدي: ص 103.

[15] – المرجع السابق، ص: 104.

[16]– عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي، ص: 124 .

[17] – المرجع نفسه، ص: 7.

[18]– المرجع السابق، ص: 87 .

[19]– المرجع السابق، ص: 93–94.